

تاريخ النشر: 2025/06/01

تاريخ القبول: 2025/05/31

تاريخ الاستلام: 2025/02/15



دور النحاة القدماء وعلماء الإعجاز في تأسيس علم المعاني

✉ عامر بن شتوح²

ameural73@gmail.com

جامعة عمارثليجي - الأغواط / الجزائر

✉ عبد القادر سائي¹

aek.saihi@lagh-univ.dz

مخبر علوم اللسان

جامعة عمارثليجي - الأغواط / الجزائر

The role of ancient grammarians and scholars of inimitability in establishing Semantics

✉ Abdelkader Saihi

aek.saihi@lagh-univ.dz

University of Amar Telidji - Laghouat -
Algeria

✉ Ameer Ben chetouh

ameural73@gmail.com

University of Amar Telidji - Laghouat
/Algeria

¹ المؤلف المرسل: عبد القادر سائي

ملخص البحث

إن ظهور علم المعاني كعلم مستقل على يد السكاكي في القسم الثالث من كتابه "مفتاح العلوم"، جاء نتيجة للتراكم المعرفي الذي شهده هذا العلم منذ إرهاصاته الأولى على يد النحاة القدماء، أمثال الخليل بن أحمد وسيبويه والفرء وغيرهم من النحاة، الذين تناولوا معظم القضايا التي أدرجت فيما بعد مباحث لعلم المعاني. ومن جهة أخرى فإن علماء الإعجاز كان لهم الأثر البارز في الوقوف على دقة مسالك هذا العلم، من خلال اهتمامهم بنظم القرآن وبيان إعجازه، فجاءت جهودهم متممة لجهود النحاة القدماء، لتتوج مرحلة الدراسات الإعجازية بكتاب "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني. الكلمات المفتاحية: النحو؛ الإعجاز؛ النظم؛ علم المعاني.

ABSTRACT:

The establishment of semantics as an autonomous field of study, as evidenced in Sakkaki's work "*Miftah al-ulum*," (*Key of sciences*) is attributable to the cumulative intellectual contributions of early scholars, including *Al-Khalil ibn Ahmad*, *Sibawayh*, *Al-Farra*, and other grammarians. Their earlier explorations of numerous linguistic issues laid the groundwork for subsequent inquiries within the realm of semantics. In a complementary vein, the endeavors of inimitability scholars played a pivotal role in discerning the methodological intricacies of this field. Their emphasis on Quranic structure and the elucidation of its unique properties enriched the intellectual fabric, ultimately culminating in the epoch of inimitability studies encapsulated in *Abdul Qahir al-Jurjani's "Dalail al-I'jaz"*.

Key words: grammar; inimitability; construction " *Nadm*"; semantics.

1. مقدمة:

نشأ علم المعاني كغيره من العلوم الأخرى من التراكم المعرفي المتوارث عن علماء اللغة والبلاغة العربية، وقد بدأت إرهابته الأولى على يد لفيف من علماء اللغة والنحو؛ أمثال الخليل بن أحمد وسيبويه والفراء وغيرهم، فالفضل في بناء الدرس البلاغي العربي يعود بالدرجة الأولى إلى هؤلاء العلماء، ومازال علم المعاني إلى يومنا هذا تتأرجح بعض مباحثه بين النحو والبلاغة. ومن جهة أخرى ألفت الدراسات الإعجازية بظلالها على علم المعاني من خلال جهود القاضي عبد الجبار والخطابي وعبد القاهر الجرجاني وآخرين، فشكّل هذا التراكم نواة علم المعاني فيما بعد. لذا سأحاول في هذه الورقة البحثية تسليط الضوء أولاً على جهود النحاة القدماء في تأسيس علم المعاني. ثم أعرج على مساهمة علماء الإعجاز في بناء هذا الصرح، لأختم بخلاصة أدون فيها نتائج البحث.

2. جهود النحاة القدماء في تأسيس علم المعاني:

شكّلت قضية اللفظ والمعنى اللبنة الأولى في بناء علم المعاني، وقد شغل المعنى حيزاً كبيراً عند النحاة القدماء، ورغم أن منهج النحاة الأوائل كان يدرس هذه المباحث في ظل المنهج البنيوي الذي يهتم بالشكل دون المضمون، إلا أننا نجد في طيات كتبهم بعض الإشارات المبكرة لعلاقة النظم بالمعنى، وفكرة الوجوه والفروق التي أبدع فيها عبد القاهر الجرجاني خير مثال على ذلك، حيث كانت إرهاباتها الأولى مبثوثة في كتب النحو والإعجاز والتفسير. ولأن من بديهيات تطور أي علم فإنه لابد له من تراكم معرفي؛ أي أن تبلور وتطور أي علم يمر بمراحل تاريخية، وعلم المعاني كغيره من العلوم تشكّلت نواته الأولى مع علماء اللغة وبالأخص النحاة، وكانت مادته منثورة في هذه الكتب، خاصة في مؤلفات النحاة الأوائل كالخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ) وتلميذه سيبويه (ت180هـ)، والفراء (ت207هـ) والزجاجي (ت337هـ) على سبيل الذكر لا الحصر.

2.1 جهود الخليل بن أحمد في تأسيس علم المعاني:

لاشك أنه كلما ذُكر الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ) إلا وُذكر معجم العين وكيف ربّبه الخليل بترتيب صوتي عجيب؛ دلّ على عبقرية هذا الرجل، ويُذكر معها أيضاً تصنيفه لبحور الشعر واختراعه علم العروض بطريقة دقيقة جداً؛ توحى بأن للرجل أذناً موسيقية وإحساساً بالإيقاع وموسيقى الشعر متناهي الدقة، كما أنه من النحاة الذين أسّسوا لنظرية العامل في النحو العربي؛ مما يؤكد امتلاك الخليل منطقاً رياضياً عجبياً، وقد أعاد الاعتبار لهذه النظرية عبد الرحمان الحاج صالح تحت مسمى "النظرية الخليلية الحديثة".

لكن يغفل الكثير من الباحثين على أن للخليل جهوداً أصيلة في تبلور الدرس البلاغي جاءت هذه الدُرر مبثوثة ومتفرقة في كتبه، لذلك لم تشد انتباه الكثير من الباحثين، وسأحاول في هذا العنصر الوقوف على جهود الخليل في الدرس البلاغي واستخلاص ما يخص علم المعاني على وجه الخصوص.

أولاً: مفهوم البلاغة (علم المعاني) عند الخليل بن أحمد:

لا يمكن أن نجد تعريفاً أو مفهوماً لعلم المعاني عند الخليل لأن تقسيم البلاغة لعلومها الثلاثة لم يكن معروفاً في عصر الخليل بل جاء به السكاكي في القرن السابع الهجري، وبالتالي كانت البلاغة في عصر الخليل كلاً لا يتجزأ، وكانت الحدود غير واضحة المعالم بين بعض العلوم كالنحو والبلاغة، وبالتالي نجد القدماء كالخليل وسيبويه والفراء وغيرهم يتناولون ألواناً بلاغية في مسائل النحو. لهذا ساقف في البداية على مفهوم البلاغة عند الخليل، ثم أحاول أن أستنبط منها إشارات الخليل لعلم المعاني.

يعرّف الخليل بن أحمد البلاغة بأنها «كل ما أدى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة، فإن استطعت أن يكون لفظك لمعناك طبعاً، ولتلك الحالة وفقاً، وآخر كلامك لأوله مشابهاً، وموارده لمصادره موازناً، فافعل. واحرص أن تكون لكلامك متهما وإن ظرف، ولنظامك مستريفاً وإن لطف، بمواتاة ألتك لك، وتصرف إرادتك معك، فافعل إن شاء الله»¹، ويوحى التصور السابق للخليل بأن مفهوم البلاغة عنده يتمحور حول النقاط الآتية:

- جاء في أول تعريفه للبلاغة قوله " كل ما أدى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة " يعني أن البلاغة عنده هي بلوغ القصد؛ أي أن مدار الأمر إيصال المعنى إلى المتلقي، ولم يشترط الخليل أن يكون الكلام بليغاً أم غير بليغ، بقدر ما ركّز على تأدية المعنى.

- أشار الخليل بعدها إلى مطابقة اللفظ للمعنى بقوله: " أن يكون لفظك لمعناك طبعاً " وهو ما يعرف بالمساواة، وكأن البلاغة عنده هي المساواة، وبذلك يستبعد الإيجاز الذي يعتبر من أخص خصائص نظام اللغة العربية، والخليل في حد ذاته نجده في موضع آخر يقصر تعريف البلاغة على الإيجاز بقوله: «البلاغة ما قرب طرفاه وبعد منتهاه»²، والملاحظ أن الخليل أحياناً يطابق البلاغة بالمساواة وأحياناً يطابقها بالمجاز، وذلك لأن من البلاغيين القدامى من يجعل المساواة قسيم إيجاز القصر، وهو ما ذهب إليه ابن الأثير³.

- يؤكد الخليل على أهمية سياق الحال بقوله: " ولتلك الحالة وفقاً، وآخر كلامك لأوله مشابهاً " وقد بسّط لنا هذه العبارة الشاطبي بقوله: «أن المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل وهذا معلوم في علم المعاني والبيان فالذي يكون على بال من المستمع والمتفهم والالتفات إلى أول الكلام وآخره بحسب القضية وما اقتضاه الحال فيها لا ينظر في أولها دون آخرها ولا في آخرها دون أولها فإن القضية وإن اشتملت على جمل فبعضها متعلق ببعض لأنها قضية واحدة نازلة في شيء واحد فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله وأوله على آخره وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف»⁴ والذي يهمننا من هذا الاقتباس قول الشاطبي " وهذا معلوم في علم المعاني " يعني مراعاة سياق الحال من صميم علم المعاني، وبالتالي يمكن أن نستشف من هذا أن الخليل يكون قد نبّه إلى أهم عرى البلاغة ألا وهي مراعاة سياق الحال. وهذا كله من أجل فهم المقصود من الكلام كما أشار إليها الشاطبي في آخر كلامه بقوله " وإذ

ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف "لتحليلنا هذه العبارة إلى مبدأ هام وهو مبدأ القصدية الذي هو من صميم الدرس التداولي الحديث.

• والاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى بقوله: "واحرص أن تكون لكلامك مُتَمَّما وإن ظُرف، ولنظامك مستتباً وإن لطف"، فمن خلال هذه العبارة نجد أن الخليل كان سباقاً لمبدأ الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى، وبالتالي يمكن القول إن الخليل قد ذكر ركيزتين أساسيتين يتحكمان في المعنى ألا وهما:

أ - مراعاة سياق الحال.

ب - مبدأ الاحتراز عن الخطأ.

• قضية تطويع الكلام لإرادتك بقوله: "بمواتاة ألتك لك، وتصرف إرادتك معك" وهذه الأخيرة لا تتأتى إلا للخطيب البليغ المفوّ حينما تجتمع الإرادة والآلة⁵، وهنا تكلم الخليل عن الكلام البليغ، وهي نفس الشروط التي حدّدها الجاحظ للخطيب حتى يكون بليغاً؛ أي مقنعا ومؤثراً في حديثه حيث قابل البيان؛ المتمثل في رباطة الجأش ومسك النفس، والتحكم في مصادر الكلام وموارده بالعي الذي هو خجل وانهمار، وخلط واضطراب، إشادة منه بالخطيب المبين وتمييزه عن الخطيب غير المبين⁶.

بينما ذكر الخليل تعريفاً آخر للبلاغة أورده ابن الرشيقي في "العمدة" يقول: إن « البلاغة كلمة تكشف لك عن البقية »⁷، وهذا التعريف الموجز نسج على منواله الجاحظ في تعريفه البيان، عندما ذكر أن البيان هو اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى؛ حتى يفضي السامع إلى حقيقته، لتتم عملية الفهم والإفهام بين السامع والمتكلم⁸. ويرى أحمد إبراهيم المسودي أن الاختلاف بين تعريفات الخليل للبلاغة مرده إلى بتر التعريفات عن سياقاتها التي قيلت فيها، وكذلك أن هذه التعريفات قيلت في مرحلة التأسيس لعلم البلاغة، ومعلوم أن بدايات أي علم يكتنفه من الصعوبة والغموض ما يكتنفه، لهذا نجد القارئ الذي لا يراعي هذه الملابسات يقع في حيرة من هاته التعريفات⁹.

ولم يقف الخليل عند مفهوم البلاغة فحسب، بل تناول الخليل بعض أبواب علم المعاني كالتقديم والتأخير والحذف وأضرب الخبر، وخروج الخبر على غير مقتضى الظاهر¹⁰، وبعض هذه الألوان البلاغية التي ذكرها الخليل جاءت منتثرة في مؤلف "الكتاب" لتلميذه سيبويه¹¹، يعني ذلك أن الخليل مهّد الطريق لتلميذه سيبويه في كثير من أبواب علم المعاني.

2.2 جهود سيبويه (180هـ) في تأسيس علم المعاني:

يُعتبر سيبويه من النُّحاة الأوائل الذين تطرقوا لمسائل علم المعاني؛ فقد أدرك أن أيّ تغَيُّر في التركيب يُؤدّي إلى تغَيُّر في المعنى، ذلك أن سيبويه لم يكن يفصل بين النحو والبلاغة، حيث إنه لا يقف على المستوى الأول من التركيب بل يتعداه إلى المستوى الثاني البلاغي، وربما تكون الإرهاصات الأولى لفكرة الوجوه والفروق قد بدأت مع سيبويه ثم توسّع وأبدع فيها عبد القاهر الجرجاني فيما بعد في "دلائل الإعجاز". ومن قضايا علم المعاني التي تناولها سيبويه في مؤلفه الموسوم بـ "الكتاب" هي:

أولاً - اشترط لصحة التركيب صحة المعنى: يشترط سيبويه صحة المعنى إضافة إلى سلامة التركيب نحويًا، وقد جاء في باب "الاستقامة من الكلام والإحالة" قوله: «فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب»¹² أي أن الكلام المفيد هو ما كان تركيبه صحيحًا نحويًا ومعناه لا يخرج إلى المحال أو الكذب أو القبح. واهتمام سيبويه بالمعاني تجاوز المعنى النحوي إلى المعاني البلاغية والأغراض الكامنة في نفوس المتكلمين وقد كان من الأوائل الذين طرّقوا أبواب علم المعاني كأحوال المسند والمسند إليه والتقديم والتأخير والحذف والتعريف والتنكير وغير ذلك من المسائل التي سنتناولها باختصار.

ثانياً - أحوال المسند والمسند إليه:

ويتعرض سيبويه في "باب كان" إلى ركني الإسناد وضوابطهما بقوله: «واعلم أنه إذا وقع في هذا الباب نكرة ومعرفة، فالذي تشغل به كان المعرفة، لأنه حدُّ الكلام، لأنهما شيء واحد... إذا قلت: عبد الله منطلق، تبتدئ بالأعرف ثم تذكر الخبر، وذلك قولك: كان زيد حليماً، وكان حليماً زيد، لا عليك أقدمت أم أخرت... فإن قلت: كان حليم أو رجل، فقد بدأت بنكرة، ولا يستقيم أن تخبر المخاطب عن المنكور، وليس هذا بالذي ينزل فيه المخاطب منزلة في المعرفة فكرهوا أن يَقْرَبُوا باب اللَّبْس»¹³ ويستفاد من كلام سيبويه تركيزه على صحة الإسناد واستيفاء المعاني ومراعاة حال المخاطب، وأن تنقل للمخاطب المعاني دون لبس، وباب أحوال الإسناد من صميم علم المعاني، وقد مهّد سيبويه الطريق للبلاغيين في هذا الباب.

ثالثاً - التقديم والتأخير:

ناقش سيبويه مسألة التقديم والتأخير على المستوى النحوي (صحة التركيب) من خلال تتبع كلام العرب، ولكنه في نفس الوقت كان يقدّم لمحات وإشارات بلاغية على هامش تفسيره لما يعتري التركيب من تقديم أو تأخير، فنجدّه يقول في باب "ما يكون فيه الاسم مبنيًا على الفعل قُدِّم أم أُخِّر" «وإن قُدِّم الاسم فهو عربي جيد، كما كان ذلك عربيًا جيدًا، وذلك قولك: زيدا ضربت والاهتمام والعناية هنا في التقديم والتأخير سواء»¹⁴ ويشير هنا سيبويه أن التقديم والتأخير مرده إلى اهتمام وعناية المتكلم، وهذا طبعًا سيؤدي إلى اختلاف في المعنى المراد تأديته أو إيصاله إلى المخاطب، فالاهتمام بالاسم يستوجب تقديمه، وكذلك بالنسبة للفعل، ورغم أن سيبويه لم يفصّل هنا في المسألة لكنك تستشفها من خلال عبارة "والاهتمام والعناية في التقديم والتأخير سواء" وتُعدّ هذه الملاحظات الارهاصات الأولى لعلم المعاني، وفكرة الوجوه والفروق لعبد القاهر الجرجاني تصب في هذا السياق.

رابعاً - الحذف:

ذكر سيبويه في باب "يحذف المستثنى فيه استخفافاً" قوله: «وذلك قولك: ((ليس غير))، ((وليس إلا))، كأنه قال: ليس إلا ذاك وليس غيرُ ذاك، ولكنهم حذفوا ذاك تخفيفاً واكتفاء بعلم المخاطب ما

يعني¹⁵ والمستفاد من كلام سيبويه السابق أن للحذف فائدتين: الفائدة الأولى التخفيف والفائدة الثانية هي علم المخاطب بها، وهذه الفائدة الأخيرة هي من صميم علم المعاني.

خامسا - الذكر:

مثلا يحسن الحذف في التركيب كما أسلفنا للتخفيف أو لعلم المخاطب به، فإنه يُستقبح إذا كان المخاطب جاهلا به، ويُعطي سيبويه مثالا بقوله: «فأما الفعل الذي لا يحسن إضماره فإنه أن تنتهي إلى رجل لم يكن في ذكرٍ ضربٍ ولم يخطر بباله، فتقول: زيدا. فلا بد له من أن تقول له: اضرب زيدا، وتقول له قد ضربت زيدا. أو يكون موضعا يقبح أن يعرَى من الفعل نحو أن وقد وما أشبه ذلك.»¹⁶، والشاهد من الكلام السابق أن جهل المخاطب بالفعل المحذوف يؤدي إلى اختلال المعنى أو لبس عند المتلقي، وبالتالي يقبح الحذف هنا، فتحليل النحاة القدماء للتركيب كان مبنيا على استيفاء المعنى.

وقد ذكر سيبويه عدة مسائل هي من صميم علم المعاني لا يسمح المقام لسردها كلها، كالفصل والوصل والخروج عن مقتضى الحال والقلب وغير ذلك.

3. 2 جهود الفراء (ت207هـ) في تأسيس علم المعاني:

معلوم أن كتب معاني القرآن حوت في طياتها إشارات بلاغية، جاءت منثورة في هذه الكتب، مُشكّلة نواة علم المعاني فيما بعد، وكتاب "معاني القرآن" للفراء حوى لمحات بلاغية في علوم المعاني والبيان والبديع كالفصل والوصل والإيجاز بالحذف والمجاز العقلي والمشكلة والقلب وغير ذلك من المصطلحات البلاغية، ومن خلال المصطلحات السابقة نجد كل مصطلح من هذه المصطلحات ينتهي لأحد علوم البلاغة الثلاثة، هذا لأن في زمن الفراء لم تكن البلاغة مقسّمة إلى علومها الثلاثة (المعاني والبيان والبديع)، والذي يعيننا هنا الأبواب التي تناولها الفراء في علم المعاني.

من أهم أبواب علم المعاني التي أبدع فيها الفراء باب الفصل والوصل، ويشير عبد القادر حسين إلى تميّز الفراء في هذا الباب بقوله: «فالفراء - إذا - قد تناول الفصل والوصل الذي أغفله أبو عبيدة تماما، وكان في حديثه أكثر وضوحا وأقرب إلى الروح العلمية منه إلى سيبويه»¹⁷ ودليل تميّز الفراء في هذا الباب أن جُل الآيات التي استشهد بها الفراء في باب الفصل والوصل قد دارت على ألسنة البلاغيين من بعده.

أما باب الإيجاز بالحذف فقد تناولوه الفراء وبَيّن المغزى من الحذف فيه، ومن الشواهد التي تناولها الفراء قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [الحج:19] أي دين ربهم (حذف كلمة دين)، فأجاز الفراء الحذف هنا للأسباب الآتية:¹⁸

أولا: لأن المعنى معلوم؛ أي تركه لا يؤدي إلى خلل في المعنى، أو لبس لدى المخاطب.

ثانيا: للإيجاز والاختصار؛ لأن الحاجة للاختصار أشد إذا كان المحذوف معلوما عند المخاطب.

ثالثا: كراهية أن يرد على السامع ما يفهمه، تفاديا للتكرار والتّرك أفضل من الذكر في هذا الموضع.

2.4 جهود أبي العباس ثعلب (ت291هـ) في تأسيس علم المعاني:

من بين أهم أبواب علم المعاني التي طرقها أبو العباس ثعلب هي أضرب الخبر، وذلك في مناظرة بينه وبين الفيلسوف الكندي، وقد نقل عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز قوله: «رُوي عن ابن الأنباري أنه قال: ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العباس¹⁹ وقال له: إني لأجد في كلام العرب حشوا! فقال له أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: ((عبد الله قائم))، ثم يقولون: ((إن عبد الله قائم))، ثم يقولون: ((إن عبد الله لقائم))، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: ((عبد الله قائم))، إخبار عن قيامه=وقولهم: ((إن عبد الله قائم))، جواب عن سؤال سائل=وقوله ((إن عبد الله لقائم)) جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني. قال فما أحرار المتفلسف جواباً²⁰، ويستنبط من جواب أبي العباس أن النحاة كانوا على دراية تامة بأن اختلاف الألفاظ يؤدي لاختلاف المعاني.

وقد أخذ البلاغيون هذا التقسيم لأضرب الخبر وأدرجوه في باب "الكلام بين الخبر والإنشاء" في علم المعاني، وأطلقوا على الضرب الأول "الابتدائي" ويُلقي الخبر الابتدائي على المخاطب خالي الذهن، والضرب الثاني أطلقوا عليه "الطلبي" ويُلقي على المخاطب الذي لديه شك في حكم الخبر، بينما الضرب الثالث يُسمى "الإنكاري" ويُلقي على المخاطب الذي يُنكر حكم الخبر.

والنتيجة المُستقاة مما سبق أن أبا العباس ثعلب تناول قضية هامة أدركها النحاة الأوائل في علم المعاني؛ ألا وهي مُراعاة حال المخاطب، وميّزوا بين المخاطب خالي الذهن، وبين المخاطب المُستفهم، وبين المخاطب المنكر.

2.5 جهود ابن جني (ت392هـ) في تأسيس علم المعاني:

حاول ابن جني المزاجية بين الدقة العلمية في مباحث النحو وبين القيم الجمالية في المباحث البلاغية، وقد تأتى له ذلك، فابن جني يشكّل عقله البياني مرحلةً النضج حيث جمع بين العقل النحوي المعياري، والعقل البلاغي الجمالي، ويتميز بفهمه العميق للمسائل التي يعالجها؛ فهو لا يأخذ كلام سابقه دون أن يُخضعه للدرس والفحص والمناقشة²¹، ومن أهم المباحث التي تناولها ابن جني في علم المعاني هي: اللفظ والمعنى، والاعتراض، والتكرار، والتوكيد، والالتفات، والإيجاز والإطناب والمساواة، والتقديم والتأخير، والحذف...

وخلاصة لما سبق يتبين لنا أن جل مباحث علم المعاني تناولها النحاة، ومهدوا طريقها للبلاغيين، إلا أن منهج الدراسة عند النحاة يختلف عن منهج الدراسة عند البلاغيين، فالنحاة درسوا هذه المباحث من جهة صحة الكلام؛ أو قل يجوز في اللغة أو لا يجوز، ومثال ذلك تقديم المفعول به على الفاعل والفاعل في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:5]، فتحليل النحاة الآية الكريمة يتوقف على صحة الكلام؛ يعني الوقوف على المعنى الأول²²؛ أي أنه متى أمن اللبس يمكنك التقديم والتأخير في أجزاء الجملة، ويتحرون في ذلك بأن العرب استعملت هذا التركيب ووقفت عليه، فإن وقع الالتباس وجب

الحفاظ على قرينة الرتبة كما في مثال "ضرب موسى عيسى" فهنا لا يجوز تقديم المفعول به على الفعل والفاعل، بينما يتجاوز البلاغيون المعنى الأول إلى المعنى الثاني، والذي ينتقل بنا من صحة التركيب إلى المفاضلة بين المعاني، فيبحثون وراء ذلك، فتقديم المفعول به في الآية الكريمة معناه: تخصيص وإفراد الله بالعبادة دون غيره، واستقصى مصطفى الجويني آراء وأذواق المفسرين والبلاغيين في استنباط الوظائف النحوية المستفادة من هذا التقديم²³، وهذا المعنى الإضافي الجمالي الذي استقيناه من التقديم هو ميدان البلاغة ومبحث من مباحثها، ولهذا فإن منهج النحاة يتوقف على الدراسة الشكلية²⁴، بينما منهج البلاغيين يراعي المفاضلة في المعاني (مضمون الجملة).

3. جهود علماء الإعجاز في تأسيس علم المعاني:

ساهم علماء الإعجاز البياني بشكل غير مباشر في تأسيس علم المعاني، وذلك لأنهم اعتبروا البلاغة العربية وسيلة لفهم النص القرآني والوقوف على مواطن الإعجاز فيه، ولا مناص لكل من أراد الغوص في الإعجاز القرآني وسبر أغواره من التسلح بعلم البلاغة، ولهذا نجد أبا هلال العسكري يشدد على هذه النقطة بقوله: «...أن أحق العلوم بالتعلم، وأولها بالتحفظ - بعد المعرفة بالله جلّ ثناؤه - علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة، الذي به يُعرف إعجاز كتاب الله تعالى»²⁵ ويستشف من قول العسكري وجوب التسلح بعلم البلاغة لكل من أراد فهم النص القرآني على أكمل وجه، بل جعل تعلم علم البلاغة مباشرة بعد معرفة التوحيد، وتشريف علم البلاغة بهذه المرتبة ينم عن اعتراف القدماء بقدسية هذا العلم، واعتبروه مفتاح الدخول للنص القرآني.

وقد شغلت فكرة النظم عند علماء الإعجاز الحيز الأكبر في دراساتهم، فالقرآن الكريم - حسب قولهم - خصه الله بحسن التأليف، وبراعة التركيب، وكمال المعاني، فجاء نظمه معجزاً ومتحدياً بيئة عُرِفَتْ ببلاغتها وفصاحتها، فكان هذا النظم محل دراسة عند القدماء، وممهداً في الوقت نفسه لنشأة علم جليل ألا وهو علم المعاني، لذلك كان لابد من الوقوف على علاقة النظم بعلم المعاني.

1.3 علم المعاني سليل نظرية النظم

يرى بعض الباحثين أن مصطلح نظرية النظم هو نفسه مصطلح علم المعاني، فنظرية النظم التي تشكلت معالمها مع علماء الإعجاز، مهدت الطريق لنشأة علم المعاني، بدءاً من الجاحظ إلى أن أحكم بنيانها الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز"، وقد أشار حلمي علي مرزوق إلى هذا بقوله: «والفضل - إذن - في نشأة علم المعاني يرجع إلى الجرجاني وهو من الفلاسفة الأشاعرة الذين أفضت بهم فكرة النظم إلى هذا العلم»²⁶؛ أي أن الواقف على علم المعاني والمتدبر لمباحثه يجده سليل نظرية النظم.

1.1.3 تطور مفهوم النظم عند علماء الإعجاز:

يعتبر الجاحظ (255هـ) أحد أبرز علماء الإعجاز الذين تناولوا قضية النظم، وقد دافع عن نظم القرآن الكريم، تتلمذ الجاحظ على يد أستاذه النظام وعنه أخذ مذهب الصرفة، ورغم أنه لم يتناول

النظم بالتفصيل كما فعل الخطابي والجرجاني وغيرهم، ربما لأن كتابه "نظم القرآن" لم يصل إلينا²⁷، وبالتالي ظل مفهوم النظم عند الجاحظ قاصرا لدى الباحثين، باستثناء بعض التعريفات المبتورة هنا وهناك.

واستقر مفهوم الجاحظ للنظم القرآني على أن نظمه البديع لا يقدر على مثله العباد، ويذكر الباحث عبد العزيز عبد المعطي عرفة أن القول بالصرفة الذي جاء على لسان الجاحظ لا يقصد بها المفهوم السائد؛ أي أن القرآن ليس معجزا بنظمه، وإنما الله صرف العباد عن مجاراته، ولكنه يرى أن القرآن معجز بنظمه وتأليفه، ولا يستطيع العباد الإتيان بسورة من مثله²⁸، والذي يعيننا من إشارات الجاحظ الكثيرة الموثقة في كتبه حديثه عن جدلية اللفظ والمعنى قوله: « المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والقروي والبدوي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وصحة الطبع ، وكثرة الماء ، وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير»²⁹ ويستنبط من هذه العبارة المتواترة عن الجاحظ أن السبيل للوصول للمعاني يتم من خلال:

- تخير اللفظ: أن يكون اللفظ سهل المخارج (خال من التنافر).

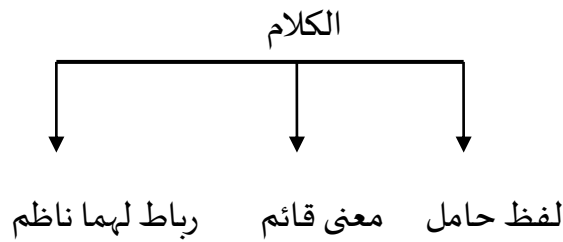
- جودة السبك: يقصد الربط النحوي بين الألفاظ.

وقد حصر الجاحظ النظم القرآني في نقطتين هامتين هما:

أولا: نظم القرآن البديع.

ثانيا: أن الله صرف العباد عن مجاراته، بسبب بديع نظمه، وليس المنع من الإتيان بمثله كما قال به البعض.

ومن أحسن ما توصل إليه الخطابي(388هـ) في دراسته نظم القرآن الكريم أن الكلام عموما يقوم على ثلاثة أشياء نبينها في الخطاطة الآتية:



وأشار إلى أن المتأمل للقرآن الكريم يجده يستوفي ما ذكره بقوله: «واعلم أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أحسن المعاني»³⁰ فالقرآن الكريم يستوفي الشروط الثلاثة على أكمل وجه، فبلغ نظمه غاية الشرف والفضيلة، فألفاظه فصيحة وجزلة وعذبة، وجاء نظمه على أحسن تأليف وأشد تلاؤم وتشاكل، وأما معانيه فجاءت في منتهى الدقة والجمال وترتقي إلى أعلى درجات الفضل والكمال³¹.

ويعرّف القاضي عبد الجبار (415هـ) النّظم بقوله: « اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام؛ وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع»³² ويستخلص من التعريف السابق أن النظم عند القاضي عبد الجبار هو ضم الكلم مع بعضها البعض بطريقة مخصوصة وهذا الضم يقوم على ثلاث ركائز أساسية هي:

أ - صفة الكلمة: يعني أن الكلمة تظهر صفتها عند انضمامها؛ أي اللفظة الواحدة قد تكون فصيحة في معنى وغير فصيحة في معنى آخر، بمعنى آخر أن الكلمة تكون فصيحة داخل التركيب المناسب لها.

ب - يراعي الإعراب: أي مراعاة الوظيفة النحوية لتلك الكلمة، وهذه الفكرة ركز عليها الجرجاني بعده وجعل مدار النظم وجوهه هو توخي معاني النحو³³.

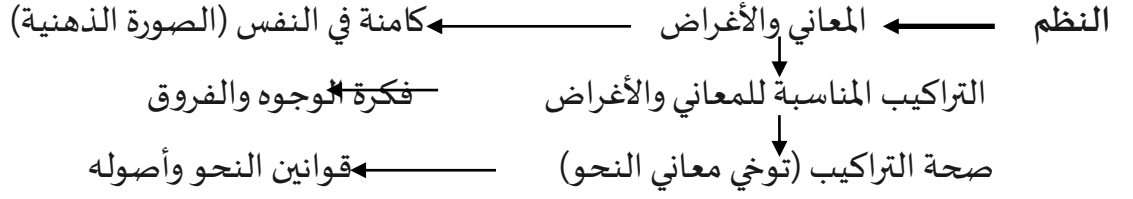
ت - مراعاة الموقع: اختيار المكان المناسب لها حتى تؤدي وظيفتها على أحسن وجه.

ويعتبر القاضي عبد الجبار أن المزية للألفاظ دون المعاني حيث يشير إلى ذلك في موضع آخر بقوله: «... أن المعاني لا يقع فيها التزايد، فإذا ن يجب أن يكون الذي يعتبر التزايد عند الألفاظ، التي يعبر بها عنها... فالذي به تظهر المزية ليس إلا الإبدال الذي به تختص الكلمات، أو التقدم أو التأخر، الذي يختص الموقع، أو الحركات التي تختص الإعراب، فبذلك تقع المباينة»³⁴ وهنا نجد إشارة القاضي عبد الجبار إلى بعض المباحث المهمة التي نادت بها اللسانيات البنيوية كالعلاقة (الاستبدالية\ التركيبية)، وأشار في نفس الوقت إلى بعض مباحث علم المعاني نذكر منها: فصاحة الكلمة، التقديم والتأخير، الإسناد.

ومن علماء الإعجاز الذين كانت لهم اليد الطولى في النّظم الإمام عبد القاهر الجرجاني (471هـ)، حيث إنه أحكم بنيانه وسبر أغواره، وبلغ بالنظم مرتبة يعز على أقرانه الوصول إليها، حتى صار لا يذكر النظم إلا ويذكر معه عبد القاهر الجرجاني. يعرف الجرجاني النظم بقوله: « اعلم أن ليس ((النظم)) إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه ((علم النحو))، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهجت فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تُخل بشيء منها»³⁵، ونستشف من كلام الجرجاني أن النظم عنده مرتكز على:

أ) قوانين النحو وأصوله (معاني النحو): أن يتوخى أبواب النحو التي هي: الخبر، الشرط والجزاء، الحال، الفصل والوصل، التعريف والتنكير، التقديم والتأخير، الحذف، التكرار، الإضمار والإظهار³⁶.

ب) فكرة الوجوه والفروق: يؤكد الجرجاني أن مدار أمر النظم قائم على ما تحتمله معاني النحو من وجوه وفروق حسب ما يعرض المتكلم من المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام³⁷. ويمكن تلخيص مفهوم النظم عند الجرجاني بالخطاطة الآتية:



وذكر تمام حسان أن الجرجاني أورد في كتابه "دلائل الإعجاز" أربعة مصطلحات هامة كانت الأساس لعلم المعاني هي³⁸:

- أ. النظم: يقصد به تصور العلاقات النحوية بين الأبواب، كعلاقة الإسناد والتعديّة والسببية...
- ب. البناء: هو اختيار المباني التي يقدمها الصرف للتعبير عن المعاني النحوية.
- ت. الترتيب: ويعني به متى تكون الرتبة محفوظة ومتى تكون غير محفوظة، حسب سياق الاستعمال.
- ث. التعليق: هو أم القرائن النحوية؛ يُقيم العلاقات بين المعاني النحوية بواسطة القرائن اللفظية والمعنوية والحالية.

وأشار تمام حسان إلى أن أخطر ما تكلم عليه الجرجاني هو مصطلح التعليق، وهو حسب قوله الفكرة الجوهرية التي قام عليها النحو العربي³⁹.

وبتأصيل الجرجاني لنظرية النظم وما يتعلق بها من بناء وترتيب وتعليق، يكون بذلك قد وضع حجر الأساس لبناء علم جديد مستقل ألا وهو "علم المعاني"، وقد أخذه عنه البلاغيون الذين جاؤوا من بعده كأبي يعقوب السكاكي والخطيب القزويني وغيرهم، فكانت أفكار الجرجاني بمثابة اللبنات التي بنوا بها صرح علم المعاني، ورسم معالمه النهائية.

4. خاتمة:

ومع نهاية هذه الورقة البحثية فإننا نخلص إلى النتائج الآتية:

✓ أن منهج علماء النحو القدماء كان مبنياً على المعنى، واقتصر النحو في العصور المتأخرة على الحركة الإعرابية هو منهج شكلي قاصر، جمّد النحو في قوالب قصيرة آلت به إلى المعيارية، وساهمت في إبعاد النحو عن جوهره الذي أسس من أجله ألا وهو المعنى.

✓ لقد كان اهتمام الخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه ومن جاء من بعدهم بالمعنى بمثابة الإرهاصات الأولى لعلم المعاني، خاصة المعاني الوظيفية للنحو، الأمر الذي جعلهم يتناولون مباحث التقديم والتأخير، والذكر والحذف والتعريف والتنكير، والوصل والفصل وغيرها من المباحث وربطها بالمعنى، هذه المواضيع في حد ذاتها صارت فيما بعد مباحث لعلم المعاني.

✓ ساهم علماء الإعجاز بشكل بارز في بناء علم المعاني انطلاقاً من فكرة الإعجاز، التي قادتهم إلى نظرية النظم، ويعتبر علم المعاني سليل نظرية النظم.

✓ إن التراكم المعرفي لنظرية النظم الذي ساهم فيه الجاحظ والخطابي والقاضي عبد الجبار أثمر نظرية النظم على يد عبد القاهر الجرجاني، وتعتبر هذه النظرية هي القاعدة المتينة التي بنى عليها البلاغيون علم المعاني فيما بعد.

الهوامش:

- ¹ - إبراهيم بن المدبر، الرسالة العذراء، شرح: زكي مبارك، دار الكتب المصرية، القاهرة - مصر، ط2، 1931، ص48.
- ² - ابن رشيق القيرواني، العمدة، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط2، 1955، ص245.
- ³ - ينظر: عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت - لبنان، ط1، 2009م، ص202.
- ⁴ - الشاطبي، الموافقات، المطبعة الرحمانية، مصر، (دط)، 1958م، ج3، ص413.
- ⁵ - أشار لمصطلح الآلة مصطفى الصاوي الجويني في شرحه عناصر العمل الأدبي عند الخفاجي وهي: الموضوع، الصانع، الصورة، الآلة، الغرض. واعتبر أن أقرب معنى للآلة هو طبع الناظم والعلوم التي اكتسبها. ينظر: مصطفى الصاوي الجويني، منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، دار المعارف، القاهرة - مصر، ط2، 1968م، ص210.
- ⁶ - ينظر: حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، المطبعة الرسمية، تونس، (دط)، 1981، ص166.
- ⁷ - العمدة، ص242.
- ⁸ - ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة - مصر، ط7، 1998، ج1، ص76.
- ⁹ - ينظر: أحمد إبراهيم المسودي، أثر النحاة في تأسيس الفكر البلاغي، 5\10\2020م، شبكة الألوكة، الموقع: https://www.alukah.net/literature_language/0/142341 بتاريخ 24\03\2023م على الساعة: 06:33.
- ¹⁰ - ينظر: عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة - مصر، د ط، 1998م، ص61 و62.
- ¹¹ - اعتمد سيبويه في بعض شواهد على آراء أستاذه الخليل، فهو في كل مرة يقول: (زعم الخليل) أو (سألته) يعني الخليل، ويدل هذا على مكانة الخليل وفضله على سيبويه، وفي نفس الوقت يدل على الأمانة العلمية التي تحلى بها سيبويه.
- ¹² - أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة - مصر، ط3، 1988م، ج1، ص26.
- ¹³ - الكتاب، ص47 و48.
- ¹⁴ - الكتاب، ص80 و81.
- ¹⁵ - المصدر نفسه، ص344 و345.
- ¹⁶ - المصدر نفسه، ص296 و297.
- ¹⁷ - أثر النحاة في البحث البلاغي، ص147.
- ¹⁸ - ينظر: المرجع نفسه، ص136.

¹⁹. ينسب البعض هذه المناظرة إلى أبي العباس (المبرد) وينسبها البعض الآخر إلى أبي العباس (ثعلب)، فهما متفقان في الكنية ومتعاصران، ورغم أن جل الباحثين ينسبها إلى أبي العباس المبرد إلا أن مصطفى عبد الرزاق صاحب كتاب "فيلسوف العرب والمعلم الثاني" له رأي آخر، فيرجح أن أبا العباس ثعلب إمام الكوفيين هو المقصود في هذه المناظرة، ويؤكد أن الراوي ابن الأنباري تتلمذ على يده في الكوفة للمزيد من الاطلاع ينظر: مصطفى عبد الرزاق، فيلسوف العرب والمعلم الثاني، مؤسسة هندواي، المملكة المتحدة، دط، 2014م، ص38 (الإحالة 37)، ونسب محقق كتاب "دلائل الإعجاز" محمود محمد شاكر المناظرة لأبي العباس ثعلب، ولهذا الباحث رجح رأي محقق كتاب "دلائل الإعجاز" ونسب المناظرة إلى أبي العباس ثعلب.

²⁰. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة - مصر، دط، دت، ص315.

²¹. ينظر: أحمد إبراهيم المسودي، أثر النحاة في تأسيس الفكر البلاغي.

²². ينظر: حلمي علي مرزوق، في فلسفة البلاغة العربية (علم المعاني)، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية - مصر، دط، 1999م، ص104.

²³. ذكر مصطفى الجويني آراء البلاغيين والمفسرين وبيان اختلاف ذوقهم لاستخراج الوظائف النحوية في التقديم في الآية الكريمة {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة/5 حيث رأى: أبوحيان: التقديم هنا للتوكيد.

- الزمخشري وجمهرة البلاغيين: أنها للاختصاص.

- القزويني: فيها عناية واختصاص.

- ابن أبي الحديد: فيها اختصاص ومشكلة في النظم معا.

- ابن كثير: فيها مشكلة للنظم. للمزيد من الاطلاع ينظر: مصطفى الصاوي الجويني، المعاني علم الأسلوب، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية - مصر، دط، 1996م، ص94.

²⁴. تجاوز بعض النحاة المحدثين منهج الدراسة الشكلية للجملة، حيث إن فاضل صالح السامرائي مثلاً في كتابه "الجملة العربية تأليفها وأقسامها" اعتمد في تحليله الجملة على منهج التفسير البياني، بينما حسان تمام في كتابه "اللغة العربية معناها ومبناها" استفاد من فكرة التعليق التي أثارها قبله عبد القاهر الجرجاني، واعتبرها هي الأساس التي يجب أن يبنى عليه درس النحوي، ووظف أيضاً السياق أحسن توظيف.

²⁵. أبو الهلال العسكري، الصناعتين. الكتابة والشعر. تح: علي محمد بجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة - مصر، ط1، 1952م، ص1.

²⁶. في فلسفة البلاغة العربية (علم المعاني)، ص171.

²⁷. أشار إلى هذا في مقدمة كتابه "الحيوان" بقوله: «كما عبت كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه» للاطلاع أكثر راجع: الجاحظ، الحيوان، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة - مصر، ج1، ط2، 1965م، ص9.

²⁸. ينظر: عبد العزيز عبد المعطي عرفة، قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة، عالم الكتب، بيروت - لبنان، ط1، 1985م، ص155.

- ²⁹. الجاحظ، الحيوان، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة - مصر، ج3، ط2، 1965م، ص131 و132.
- ³⁰. الرماني، الخطابي، عبد القاهر الجرجاني، ثلاث رسائل في الإعجاز، تح: محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة. مصر، ط3، دت، ص27.
- ³¹. ينظر: ثلاث رسائل في الإعجاز، ص27.
- ³². القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والانباء والنشر، القاهرة - مصر، مج16، دط، دت، ص198.
- ³³. سأتناول هذه الفكرة بالتفصيل عندما أتطرق لمفهوم النظم عند الجرجاني فيما سيأتي من البحث.
- ³⁴. المغني في أبواب التوحيد والعدل، ص199 و200.
- ³⁵. دلائل الإعجاز، ص81.
- ³⁶. ينظر: دلائل الإعجاز، ص82.
- ³⁷. ينظر: دلائل الإعجاز، ص87.
- ³⁸. ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء - المغرب، دط، 1994م، ص186 و187 و188.
- ³⁹. ينظر: اللغة العربية مبناها ومعناها، ص189.